الأستاذة: لمياء عيطو

مقياس: مدخل إلى الأدب المغاربي باللغة الأجنبية

المحاضرة موجهة لطلبة السنة الثانية دراسات أدبية (الفوج 03/02/01)

المحاضرة السادسة: الأفيون والعصا لمولود معمري

تعدّ رواية الأفيون والعصا لمولود معمري، من الروايات الجزائرية الّتي استلهمت الثورة وتفاعلت مع أحداثها، ورصدت بدقة متناهية ما عاناه الشعب الجزائري من سياسات الاستعمار الغاشمة، فجاءت مرآة عاكسة لذلك الواقع المرير، بحيث يعرض معمري في هذه الرواية قصة قرية جزائرية في جميع مظاهرها أثناء المقاومة، إنها المقاومة كما يراها الذين عاشوها وتجاوبوا معها وتحمّلوها.

كان مولود معمري من الكتّاب الجزائريين الذين انحازوا في أعمالهم الروائية إلى دائرة الالتزام الثوري واحتضان صميم القضية التي استحالت إلى أصل في سلم الاختيارات، مما جعله يستغل استراتيجيات إنتاج النّص الرّوائي ضمن خطاب الثورة الموظف عبر بنيات سردية، ويقول مولود معمري معلقا على طريقته في هندسة روايته « لقد كان تخطيط عالم الأفيون والعصا أشبه ما يكون ببناء السمفونية (فجاءت أشبه) بمؤلف موسيقي، حيث تساهم عدة عوامل تبدو مختلفة في ظاهرها على الايحاء بتناغم عام ».

الأفيون والعصى وعي جديد لتمثل الثورة:

تعد رواية الأفيون والعصا ظاهرة بالغة الأهمية في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية في عهد الاستقلال. وهي أول نتاج أدبي عن الثورة الجزائرية، ألفه كاتب ظل وفياً لمبادئ إبداعه الباكر قبل الحرب، وليس صدفة أن ينشر معمري روايته هذه بعد نهاية المرحلة التاريخية التي يصفها، ذلك أن الكاتب يفضل اتجاهات الواقع، التي تحددت وبرزت بوضوح وليس تلك التي ما ا زلت في طور الارتسام .ومع ذلك فلا ريب في جدة الموضوع الذي اختاره، ولا يتخلى الكاتب عن

السرد التوسعي في الأغلب، ويسعى إلى بحث وضع الأمة، مصورا وعي الفئات الاجتماعية، الوعي الناقد، الذي يجسده البطل الرئيسي الطبيب البشير.

شكلت الرواية وعيا جديدا للإنسان الجزائري، وقد خصص معمري مناطق للتفكير والتفعيل الفني داخل الحلقات المتتابعة للتاريخ، لتمثل الجزائري المقموع ثقافيا ودينيا واجتماعيا، وسياسيا إذ يمكننا التأكيد أن الرواية عند مولود معمري نمت وتطورت نتيجة ظروف ثقافية وسياسية، لأن الفن الروائي في حاجة ملحة لإبراز القدرات الفنية والجمالية قبل أن يكون وسيلة كفاح وتوضيحا لرؤية سياسية، وثورة الجزائر حاضرة كمرآة في هذا الفن.

تتغنى رواية الأفيون والعصا بحرب الاستقلال، بمحاسنها وتناقضاتها، بأصدقائها وخائنيها، تدور أحداثها في إحدى القرى القبائلية تسمى تالا. تروي تالا بقلم معمري جهاد سكانها أثناء الثورة التحريرية، تروي بجبالها وتلالها القمع الذي تمارسه يوميا على شيوخ ونساء القرية بسبب دعمهم للمجاهدين ومساندتهم لهم.

بنيت رواية" الأفيون والعصا "على خطوط فاصلة لكنها متماسكة وواضحة، بحيث وقف الجزائريون المقاتلون على جانب، ووقف الجيش الفرنسي على جانب آخر، وبين الجانبين يقف الشعب الجزائري رفضا الخضوع والاستسلام. ولقد أثبت مولود معمري تمتعه بخيال خصب في وصفه لمشاهد وأحداث روايته وهو يستعيرها من بيئته ونظرته للحياة، ومن رؤيته الثاقبة لمشاكل شعبه، فقد كانت طاقته الوصفية كبيرة خاصة في تحريك الصور ، فبدت بالغة القوة والتأثير لدرجة تفرض ذاتها على القارئ، وتلازم خياله لفترة بعد قراءة الرواية، من ذلك مشهد" عمر "وهو يرمى من الطائرة « ...وفجأة سمعت صرخة وحشية، ولفظت الطائرة كرة صغيرة، مستديرة، وكانت في بداية الأمر منطوية حول نفسها ثم ظهرت لها أذرع وأرجل أخذت تتأرجح في كلّ اتجاه في الهواء...وسقط عمر ».

تتحرك أحداث الرواية سريعا تبعا لحركة المعركة، فبعد بداية بطيئة نوعا ما، تتسارع الرواية وتندفع بالقارئ نحو نهاية لم يكن يتوقعها، وتظهر قوة التشويق بعد تدمير قرية "تالا"، هذا الحدث الذي كان من الصعب توقع حدوثه إلا أنّ هذه النهاية غير المنتظرة، تشكل أهم العناصر في الرواية فبعد أن استشهد" علي "بطل الرواية أمام سكان قرية "تالا "في الساحة العمومية، قابلت النسوة هذا الموت البطولي بالزغاريد، خاصة بعد منع دفن الجثمان والمطالبة بإخلاء القرية في الحين استعدادا لتدميرها بالمدفع .لقد كان جميع الحضور يشعر وكأن حياة جديدة بثت في هذا الشهيد وانتقلت إليهم، فالشهيد حي في قلوب ملايين الرجال والنساء، فها هي" تسعديت "حبيبة" علي "تصرخ قائلة: «عزيزي لم يمت كما يعتقد، فعزيزي نال الخلود، فسيحي في قلبي وقلوب ملايين رجال وملايين نساء هذا الوطن».

إن موت الأبطال لا يؤدي بالضرورة إلى موت القضية أو انهزام الجزائر، إنها استمرارية فرضها حب الوطن، وفرضتها جدلية التاريخ، فقد يموت بطل واحد، ولكنه يولد مكانه ملايين الأبطال. يقول رمضان إحدى شخصيات الرواية:

«إخواني...الرجال يمرون والثورة باقية، لقد مات عميروش ولكن في جبالنا وفي صحارينا، وفي أوديتنا، في دموعنا وفي عزمنا هناك ملايين أمثال عميروش ...وروحه الآن مع ملايين الشهداء، يقف يشاهدنا مع أهل البيت وفي عرش الله سبحانه وتعالى».

لقد تمثلت الثورة في هذه الرواية من خلال مضامينها وعناصرها السردية كونها تجمع بين الأبعاد الوطنية والقومية والإنسانية، وبناء على ذلك فإن" معمري "ينظر إلى الحرب من الزاوية الإنسانية، فقد عبر في تفكيره حدود المعركة إلى عالم الإنسان الواسع مما جعل الرواية تخرج من مجال الأدب الوثائقي، وتبني على أهداف ثلاثة، وصف حرب التحرير، تحليل السياسة الاستعمارية، دراسة موقف الإنسان عندما يواجه قرارا حاسما مصيريا، وبهذا المتطور دخلت هذه الرواية باب الأدب العالمي وعبرت حدود الإقليمية الضيقة.

العنوان استراتيجية فنية لتمثل الثورة:

يمثل عنوان" الأفيون والعصا "من الوحدات الدلالية الأساسية الأولى التي تكون بنية هذا العمل الروائي، لما يتمتع من خصائص تعبيرية وجمالية كبساطة العبارة، وكثافة الدلالة .يتشكل العنوان من وحدتين دلاليتين مختلفتين، بحيث ارتبط الأفيون بالتخدير وارتبطت العصا بالضرب.

إن سياسة فرنسا الاستعمارية هي سياسة الأفيون والعصا أو بتعبير آخر سياسة الترغيب والترهيب يقول الروائي: «جرب معنا الفرنسيون في البدء التضليل، ولإقناعنا استعملوا كل مفاتنهم، وفي كتبهم علمونا جان دارك، نابليون لكنهم لم يتمكنوا من جذب أنظارنا الهاربة، لا يرون إلاّ طريق الكراهية، واعتقدوا بأننا جاحدون ...ولم يبق لهم إلاّ استعمال الطريقة الأخرى، فمنذ ثلاث سنوات ونحن نسجن، نضرب، نعذب، نقتل بمختلف الطرق ولم يبق لهم إلاّ الأفيون والعصا».

المكان مكان قوي للتاريخ وتمثل أقوى للثورة:

تبدأ رواية" الأفيون والعصا "بوصف مكان الأحداث، بوقفة على مدينة الجزائر العاصمة، أين قضى "بشير" عشر سنوات .كان يعيش حياة ترف ولامبالاة في المدينة، وفضل أن يبقى محايدا، يقول الروائي: «الحياة المستقرة، ما يعني انجذابه وراء مغريات المدينة، من مسكن لائق، ومنصب عمل مهم، وحياة هادئة ».

كان بشير يتمزق بين عالمين، عالم المدينة والترف أين كان يعيش مع صديقته كلود، وعالم القرية والفقر والحرب، هذا التمزق نتج من شكه في إمكانيته نجاح الثورة أمام أكبر قوة في القرن العشرين، وحجته في ذلك أن من يقود هذه الثورة هم أميون يجهلون حقائق الحروب والاستراتيجيات العسكرية.

وجد" بشير "نفسه يعيش في ضياع قاس يصعب تحديد بدايته ونهايته، لكنه يقرر أخيرا العودة إلى قريته للالتحاق بصفوف الثورة وبالضبط قرية" تالا "مسقط رأسه .يقول لروائي: « فتالا كلمة أمازيغية تعني العين أو مصدر الماء، لكن لا نجدها في هذه القرية المترامية في أطراف أحد جبال المنطقة، لأن أهلها سموها بهذا الاسم لوجود مصدر الماء بها لأن أجدادهم وفي زمن مضى كانوا يسكنون قرية اسمها تلا أوزرو، حيث الماء الغزير والقمح الوافر والمراعي الخضراء، والسهول الجارية، لكن وبسبب السياسة الاستعمارية انزحوا إلى هذه القرية فعمّروها وسموها باسم قريتهم السابقة».

إن قرار عودة" البشير "إلى القرية قرار نبت من أعماق الذات، رغبة جياشة حركتها قوة الحنين الفياض، العنيف، الثائر، من ذلك أن القرية هي الرمز الأكبر للطبيعة، والقرية تمثل الأرض وما تمنحه من شعور بالتواصل والاستمرار والعودة إليها والاتصال بها هي عودة إلى أمّ خالدة.

خاتمة:

تعدّ رواية الأفيون والعصا "من الروايات الجزائرية الّتي استلهمت الثورة وتفاعلت مع أحداثها، ورصدت بدقة متناهية ما عاناه الشعب الجزائري من سياسات الاستعمار الغاشمة، فجاءت مرآة عاكسة لذلك الواقع المرير، بحيث يعرض" معمري" في هذه الرواية قصة قرية جزائرية في جميع مظاهرها أثناء المقاومة، إنها المقاومة كما يراها الذين عاشوها وتجاوبوا معها وتحمّلوها. ورواية" الأفيون والعصا "شهادة للتاريخ عن الموجود في الحقيقة والواقع ويقين بشرعية القضية الجزائرية، وابراز لمغالطات وجرائم الاستعمار وفضح لاستراتيجياته المزيفة، وتمثل سردي قوي للثورة الجزائرية المباركة.

المراجع المعتمدة في المحاضرة:

- عايدة أديب بامية: تطور الأدب القصصي الجزائري.
- عبود أوريدة: تمثل الثورة في رواية الأفيون والعصى لمولود معمري.